



ابتهاج يونس

الاستشراق .. جدلية الأنا والآخر

وقت تزامن الأحداث التاريخية في أوروبا في قرونها الوسطى - هنا تترسب فيها تراكمات الجهل والتشدد والحروب الأهلية، وهناك يغزوها المسلمون ويستوطنونها، ومن جانب آخر تنطلق حملات أوروبا الصليبية لتغزو الشرق الأوسط - يندفع فضول أوروبا لسبر أغوار الشرق؛ لأسباب علمية ونهضوية؛ ومنها: سياسية واستعمارية؛ فظهر مفهوم الاستشراق الذي يُعنى بتمشيط الشرق بدراسات إنثربولوجية وتاريخية ودينية، والتعمق في بناء الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

مرتبطة بوظائف السيطرة والحكم والتنظيم، ويضيف: "لم يتحرر مفهوم الأنا في أي وقت من حملاته وشوائبه الأصلية الراجعة إلى نظام السيطرة الاجتماعية". ويؤكد بليز باسكال: "لأننا خاصيتان؛ فمن جهة هو في ذاته غير عادل من حيث إنه يجعل من نفسه مركزا لكل شيء، وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث أنه يريد استعبادهم؛ ذلك لأن كل "أنا" هو عدو، ويريد أن يكون المسيطر على الكل".

وهناك وجهة نظر أخرى في هذه الفلسفة تحاول تحسين العلاقة بين الأنا والآخر، لتجعلها علاقة متكاملة؛ فمن الفلاسفة من يرى أن الآخر انعكاس للأنا ومرآته، أو أن الأنا مكمل للآخر، فيفسر أن أب الرحلات والاستشراق والاستغراب هو اكتشاف لزوايا لم تعرفها الأنا عن نفسها، وقد تساهم في التأثير والتغيير أحيانا، وهي مجال رحب للاستفادة والتشارك الحضاري.

إيجابيات الاستشراق

تكمن إيجابيات الاستشراق في تطبيق نظرية الأنا والآخر ذات العلاقة المتكافئة في الحراك الثقافي في العالم وتبادل العلوم والخبرات. وكذلك الشد والجذب بين الثقافتين أدى إلى ظهور أدبيات أثرت المكتبات العالمية، وظهرت دراسات مختلفة تسبر أغوار العالمين. كذلك نشاط الحركات الثقافية وتطور المجتمع المدني في المجالات الفكرية المختلفة، والاستفادة من العلم والتقنية في تطوير السياسات. كما اهتم الغرب بالتنقيب عن الآثار والعالم التاريخية التي لم يكتشفها الشرق لنفسه، فظهرت في عهدهم المخطوطات المطورة.

الاستغراب كردة فعل

ويُعد الاستغراب من أهم نتائج الاستشراق على البلدان الشرقية؛ فأصبح الشرقيون يزورون الغرب ويتعرفون على حضارتهم وإرثهم الفكري للمقارنة، ومعرفة الجديد وخروجاً عن الحدود الثقافية الضيقة التي حصروا فيها، وهذا كان بسبب عامل الاستغراب الذي صنعه الغرب لهم من جهة، ومن جهة أخرى استعمار الغرب للشرق؛ مما أدى إلى ابتعاد الشرقيين للخارج للاستفادة والرجوع لخدمة مصالحهم.

ولتحليل سيكولوجية المستغربين؛ فهم لا يختلفون عن المستشرقين؛ فمنهم المغالي في الذوبان ويصور الغرب بالرومانسية الشديدة، ومنهم من كان متعصبا متشددا يفسر كل شيء بـ "بارانويا المؤامرة" والكيد على الإسلام، ومنهم منصف يحاول أن يجد ما يفيد ويتبرك ما لا يفيد.

"الاستكانة للتنظيم" كما لو كانت غريزة بشرية. فهو ينظم نفسه بنفسه، ويصنف نفسه بنفسه، وهذا ليس من باب القمع بقدر ما هو تنظيم وحفاظ؛ فالفرد يشذب نفسه داخل الجماعة، ويساوم بما تملئ عليه مصالحه ومصالح المجتمع.

ويُدلل فوكو على ذلك بحدث تاريخي بأن نظام المدينة يعود لانتشار الطاعون في القرن الـ١٧م، فقد تعين على المريض التزام مكان معين لا يغادره، وأن يقدم تقريرا عن حالته الصحية، وهكذا انتظم الفصل بين المرضى والأصحاء على أساس تنظيم فردي لا اجتماعي؛ فتعيش المدينة حياة فاضلة وتسير أمورها بنفسها. ويذكر فوكو مثلا تاريخيا آخر حول معمار سجن بنشام في القرن الـ١٩م، والذي كان به برج مراقبة تحيط به مجموعة من الزنازين، لا يستطيع فيه السجناء التحرك بسبب عدم تأكدهم من فعالية البرج؛ فهكذا تصبح سلوكياتهم منتظمة بعد مدة من الزمن حتى لو كان البرج لا يعمل، وهنا يُؤكد على نظريته "ميكانيكية السلطة".

وهنا: يربط إدوارد سعيد نظريات فوكو بالاستشراق؛ كون الجدل حوله لا يُمكن تحديده أو فهمه دون فهم النظام الهائل الذي صنعه الحضارة الغربية، والتي بها استطاعت أن تهيم على الآخر، وتخرجه لنا بالقالب الذي تريده ثقافيا واجتماعيا وفكريا؛ فعندما يتحدث المرء عن شيء لا يعني أنه يفهمه، وتعامل المرء مع الحقيقة الظاهرية لا يعني قربه منه، فهناك لا وعي يحرك كل ذلك، ولابد من سبر أغوار هذا العنصر؛ ففكرة الغربي عن الشرق ناتجة عن راسب تاريخية وسياسية واجتماعية عميقة أدت به إلى أن ينظر للشرق بهذه الطريقة.

الأنا والآخر

وفضلا عن تحليل إدوارد سعيد، يُمكن أن نحلل الاستشراق بفلسفة الأنا والآخر، والذي شرحه محمد عابد الجابري بأنه يرجع للفكر اليوناني الذي يرى ثنائية الإنسان والطبيعة، ويحلل علاقات الصراع بينهما؛ باعتبار أن الإنسان هو مركز الكون والفاعل فيه، والطبيعة أو الآخر عبارة عن موضوعات مسخرة له، وهي غالبا مرتبطة بالفعل.

فالأنا هي نفي الآخر، أي أن منطق الثنائيات هو عنصر متجذر في الفلسفة الغربية ومبني على السيطرة. ويؤكد ذلك الفيلسوف ماكس هوركهايمر: "من الصعب جدا أن يحدد المرء بدقة ما أرادت اللغات الأوربية في وقت من الأوقات أن تقولته وتعنيه من لفظ الأنا الذي يسبح في تداعيات غامضة قاحلة، فهو يحاول كسب معركة ضد الطبيعة على العموم وضد الآخرين من الناس على الخصوص، كما ضد الدوافع السلوكية التي تحركه، يبدو

كتركيب يرى الغرب شرقه تاريخيا ليوجهه ويسيطر عليه بالطريقة التي تحلو له.

٤- تتسم نظرة الغربي للشرق بالخيبالية وعدم الواقعية؛ فإن كان متعاليا يراه دارا للخرافات والسكر وينسى أن الأساطير والخرافات مكوّن لكل حضارة، ومنها اليونانية. أما إن كان متعاطفا أو معجبا؛ فيصف الشرق برومانسية فوق طاقة الحياة الشرقية.

٥- العلاقة بين الغرب والشرق تتسم بالجدود، علاقة مستهلك مسيطر بمنتهج تابع، وهذا يظهر في كتابات المستشرقين عندما يستغلون ثقافات الشرق وثرواتهم ثم ينسبون التقدم لأنفسهم؛ أي أن الاستشراق عمل مناهض للغرب، والشرق أداة نهضتهم.

٦- ينقد سعيد العلاقة غير المتكافئة في وصف الشرق، فإما أن يكون المستشرق متعاليا يحط من قدر الشرق، أو في المقابل ترى الآخرين يتعاطفون معه بكونه مظلوما وبلا تنمية، ويحتاج ليد لمساعدته لانتشاله من التخلف؛ فتظهر الأدبيات المبررة لاستعمار بهدف النهوض به.

٧- ينظر سعيد أنه لا يوجد شيء اسمه شرق وغرب، ولو تخلى العالم عن الثنائيات والأفكار المسبقة، لرأينا أن الشرق - كما تم تصويره - ليس شرقا، والغرب - كما يظن نفسه - ليس غربا؛ فلا بد للغرب أن يفتح على الشرق ويلغي الحدود النفسية التي ورثها اتجاه الشرق؛ فتاريخيا هناك تداخل كبير بين الحضارات، وهي متشابكة ويصعب الفصل بينها.

٨- تتسم أدبيات الاستشراق بالتعريض السياسي، وأنها ذات هدف استعماري؛ فأغلبها يحاول تعميق فجوة الصراع بين الشرق والغرب، واحتكار الشرق على أوروبا بكونه معبرا لهم لا أكثر ولا أقل، والتركيز على الفروقات الثقافية في الشرق؛ بكونهم يتميزون بالتنوع الثقافي في منطقة واحدة؛ وبالتالي فهم حتما يتحاربون ويتقاتلون.

الإطار النظري

اعتمد إدوارد سعيد على نظريات ميشيل فوكو في تحليل أدبيات الاستشراق؛ استنادا لعنصر "الخطاب"، وهو قائم على نظام تحليل عنصر المنطوقات، والذي به يستخدم النص للتعرف على العالم وليس العكس، وهو يختلف عن التحليل اللغوي؛ فهو يُؤصل الموضوعات للوصف الأركيولوجي، والوصف الجينولوجي؛ فالاستشراق عند سعيد يعد نوعا من الخطاب الذي يتجسد بالتوظيف الميكانيكي للقوة.

وتنص هذه النظرية على أن المجتمع الحاضر مجتمع منظم يمارس وظائفه من خلال فرض قوة وهمية "القانون"، وهو ما يدفع الناس للامتثال لها بمبدأ

استمرت هذه الدراسات لقرون لتبلغ أوجها في القرن الـ١٨-١٩م؛ وذلك بسبب التغيير السياسي الذي كان شعلته الثورة الفرنسية، فبدأت في حركة التنوير، والتشجيع على العلم والبحث، أملا في أن تكون أوروبا سيدة العالم، وهذا ما أدى بالحكومات الغربية إلى الاستفادة من منجزاتها العلمية والأخذ بنظريات نوابغا، وساعدهم ذلك التقدم العلمي في مجال النقل والاتصال لينتسروا حول العالم فيدرسون، ويمشطوا كل شاردة وواردة فيه.

ويقدم الباحث محمد شاهين أطروحة دقيقة ومفصلة في هذا الصدد - بعنوان "خطاب الاستشراق" - مستندا على نظرية الخطاب لميشيل فوكو، ناقدا الاستشراق بالرجوع إلى نظريات الغرب نفسها؛ ومنها: فاضل إدوارد سعيد على بقية من تناول الاستشراق ليس بكونه أول من تحدث عنه، بل بكونه أول من تناوله بعيدا عن عواطف الاستعلاء والازدراء، أو الخيالية والشفقة؛ فقد عرض مكونات الاستشراق بكل دقة وموضوعية على عكس المؤلفات الأخرى التي تميزت بالتحيز والأيدولوجيا، ناهيك عن اقتصارها على السرد الأدبي والتصور الرومانسي للشرق.

إدوارد سعيد رائدا

يقدم لنا سعيد مادة علمية جادة على خلاف البقية؛ فقد نقد الأساليب الأكاديمية القديمة في اقتصار المستشرقين على المخطوطات والأدبيات التاريخية الشرقية، وتحريها وتصنيفها دون التولج إلى الميدان والواقع. وكذلك يحسب له أنه استخدم مناهج النقد الفلسفية الحديثة في تأسيس الأفكار وتحليل هذا الخلاف والتعامل مع الاستشراق بكونه "خطابا، متأثرا بنظريات ميشيل فوكو. ويمكن حصر نقد إدوارد سعيد للاستشراق في النقاط الآتية:

١- ينظر الغرب للشرق بنظرة الجمود، وأنه غير متغير، وأن حراكه التاريخي والحضاري دائرة مغلقة، أي لا جديد فيه، وأن عناصر الحراك الاجتماعي فيه شديدة البطء، وهذا يذكرنا بنظرة عالم الاجتماع ماكس فيبر في تصوره للشرق أن قيمه عائق لهذا الحراك فهي ليست كالبروتستانتية التي تحفز على الإنتاج والتقدم.

٢- خطاب الثنائية بين الشرق والغرب، والتعامل بينهما كأضداد؛ فالشرق لديهم شرق لأنه ليس غربا. مثلا يزعمون أن الشرق خيالي لأن الغرب عقلاني، الشرق مريض لأن الغرب معافي... إلخ.

٣- العلاقة بين الشرق والغرب علاقة هادف ومستهدف، مناهض وتابع، سيد وعبد، وبعد هذا أسوأ أنواع الاستشراق فيصبح وظيفة يستخدمها الآخرون